SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.25 NO. 1 2026
DOI: 10.51984/B55RKF19

مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

غزو المسلمين لمدينة باري الإيطالية وتأسيسها إمارة إسلامية بين عامي (226-257هـ/841-871م)

إدريس مفتاح حمودة

قسم التّاريخ والحضارة الإسلاميّة، كليّة اللّغة العربيّة والدّراسات الإسلاميّة، الجامعة الأسمريّة الإسلامية، ليبيا

الملخّص

يتناول البحث إحدى غزوات المسلمين البحريّة، الّتي غفلت عن ذكر تفاصيلها مصادر ذاك الزّمان، ولم تحظى باهتمام المؤرّخين حتّى كاد يطويها النّسيان، إذ لم نرى لها ذكرًا إلاّ القليل ممّا خطّته الأنامل بالأقلام، فكان ذلك النّزر اليسير دافعًا لشحذ الأذهان، من أجل البحث عن تاريخ مفقود، فكانت المهمة شاقّة كمن ينحت في حجر العقيق، ليستنطق ذلك الماضي عن ماهية ذلك الغزو الّذي توجّه المسلمون به إلى مدينة باري (Bari) الإيطالية الواقعة على ساحل البحر الأدرياتي، بعد نجاحهم في غزو صقلّيّة وفتحها ، واتّخاذها قاعدةً متقدّمة في البحر المتوسّط، ونركّز في ثنايا هذا البحث عوامل غزو تلك المدينة، ثم تأسيسها إمارة إسلامية ، وتتبّع أسباب سقوطها واندثارها.

وكانت الإشكاليّة تتمحور في محاولة البحث عن دوافع ذلك الغزو بين الانفصال عن الدّولة الأغلبية والتّوسّع في الجنوب الإيطالي، ومن خلال المنهج التحليلي حاولنا إلقاء بعض الضوء بما تيسّر من النّتف الضّئيلة؛ والإشارات القليلة؛ الّتي أرشدتنا لتصوّر تلك الأحداث؛ واستنباط النّتائج؛ الّتي توصّلنا إليها، لمعالجة إشكاليّة البحث، فاستنتجنا من ذلك أنّ غزو مدينة باري (Bari) كان نتيجة الظّروف السّياسية والاقتصاديّة الّتي مرّت بها المنطقة، ورغم استقلاليّة تلك الإمارة عن الأغالبة فإنّ التبعيّة الإسميّة للدوّلة العبّاسية لم تشفع لها لإنقاذها ومدّ العون لها حينما سقطت على يد لويس الثّاني (Luigi II) سنة 257هـ/871م.

الكلمات المفتاحية:

باري
خلفون البربري
مفرج بن سلاّم
سودان الماوري

The Muslim conquest of the Italian city of Bari and the establishment of an Islamic emirate there during the third century AH/ninth century AD

Idriss Muftah Hamouda

Department of History and Islamic Civilization, Faculty of Arabic Language and Islamic Studies, Al-Asmariya Islamic University, Libya

Keywords:

Bari
Khalafoun al-Barbari
Mufarraj ibn Sallam
Sudan al-Mawri

ABSTRACT

The study addresses a modelof the Muslim naval expeditions, whose details were neglected by the sources of that era, and did not garner the attention of historians to the extent that they were almost consigned to oblivion, as we hardly find any mention of them except for a scant few lines written by the hands of scribes. This scant material motivated an intellectual pursuit to recover a lost history. The undertaking proved arduous, akin to carving in agate, in an attempt to extract testimony from that past regarding the nature of the expedition directed towards the city of (Bari) in Italy, situated on the coast of theUpgrade for entire file translation at in conquering Sicily and making it a base in the Mediterranean Sea, this research focuses on the factors contributing to the conquest of that city, then its establishment as an Islamic emirate, and traces the causes of its fall and eventual disappearance. The problem centeredfocusin an attemptto investigatethe motives behind that invasion between secession from the Aghlabid state and expansion into southern Italy. Through the analytical method, we sought to shed some light with the limited available fragments and scant references which guided us to conceptualize the events and deduce the conclusions we reached in addressing the research problem, thuswe concluded from this thatthe invasion of the city of Bariwas the result of the political and economic circumstanceswhich the region experienced, and despite the independence of that emirate fromthe Aghlabidsthere remained a nominal subordination.

*Corresponding author:
E-mail addresses: e.hammoda@asmarya.edu.ly

Article History : Received 19 January 2026 - Received in revised form 27 March 2026 - Accepted 02 April 2026

المقدّمة:

كانت غزوات المسلمين البحريّة خلال العصر الوسيط قد أسهمت في الدّفاع عن ثغور الدّولة الإسلاميّة من غارات الرّوم البيزنطيين خلال النّصف الأوّل من القرن الأوّل الهجري، وكانت معركة ذات السواري 34هـ/654م أوّل معركة بحريّة خاضها المسلمون بأسطولهم النّاشئ مع أسطول البيزنطيين ، وتعدّ تلك المعركة الّتي انتصر فيها المسلمون بدايةً للتّنافس بين القوى البحريّة، الّذي بلغ ذروته في القرن الثّاني الهجري، وبعد أن أنشأ المسلمون دارًا لصناعة السّفن في كلٍّ من الإسكندريّة وتونس، ازدادت وتيرة غزوات المسلمين الّتي كانت غزوات استكشافية وردّ العدوّ لتتحوّل إلى غزوات فتح واستيلاء واستيطان .

في غضون ذلك كان البحر المتوسّط حلقة وصلٍ تجاريّة، ومحطّ أطماع القوى المتصارعة لاحتكار التّجارة وفرض الهيمنة ، فبادر المسلمون للقيام بغزو صقلّيّة (Sicilia) عام 212هـ/828م من خلال أسطول الأغالبة القادم من إفريقيّة، ونتج عن تلك الغزوة فتح صقليّة (Sicilia)لتكون قاعدة متقدّمة للقيام بغزوات أخرى للتّوسع والاستيطان، ومن تلك الغزوات غزوة مدينة باري (Bari) عام 226هـ/841م، الّتي تأسّست فيها إمارة إسلامية دامت حوالي خمس وعشرين سنة، وقد أغفلت المصادر الإسلاميّة تاريخ تلك الإمارة ، إذ لم نجد سوى إشارات قليلة في هذا المصدر أو ذاك، وفي هذا البحث سأحاول كشف السّتار عن تاريخ هذه الإمارة المجهولة اعتمادًا على الإشارات القليلة والنّتف الضئيلة من المصادر والمراجع ، لعلّي ألتلمّس بعضًا من أخبارها وأحداثها ، والظّروف الّتي أدّت إلى قيامها ثمّ سقوطها واندثارها.

الدّراسات السّابقة:

أ- كتاب بعنوان: (إمارة باري 847-871م) للمؤرّخ الإيطالي جوزيي موسكا (Giosuè (Musca أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة باري الإيطاليّة، وقد صدر هذا الكتاب عام 1964م، ولم أعلم أنه تُر جم إلى اللّغة العربيّة.

ب- بحث بعنوان: (إمارة باري الإسلامية في الجنوب الإيطالي (226-257هـ/ 841-871م) لمؤلفه هوشات سامي ، منشورات مجلة التاريخ المتوسطي شهر 6 لعام 2025م.

إشكالية البحث:

في الوقت الّذي تمكّن فيه الأغالبة من السّيادة على البحر المتوسّط في بداية القرن الثّالث الهجري/ منتصف القرن التّاسع الميلادي، ودخولهم في صراع مع البيزطيين في شمال المتوسّط ، هل كان غزو باري (Bari)واتّخاذها إمارة إسلاميّة كان بهدف الانفصال عن التبعية للدّولة الأغلبيّة أم لأجل التّوسع في الجنوب الإيطالي؟

أهداف البحث:

- محاولة الكشف عن التّاريخ المنسيّ المتعلّق بإمارة باري (Bari) الإسلاميّة في جنوب إيطاليا والظّروف السّياسيّة الّتي أدّت إلى قيامها.
- إبراز دور إمارة باري (Bari) الإسلاميّة في الصّراع السّياسي والعسكري شمال البحر المتوسّط والبحر الأدرياتي (Mare Adriatico) .
- تحليل وتفسير الآثار الّتي ترتّبت على طبيعة علاقة الإمارة مع الأغالبة والخلافة العباسيّة بين التّبعيّة والانفصال.
- شدّ انتباه الباحثين والمهتمّين بالتاريخ الوسيط الإسلامي لمواضيع جديدة لا توجد عليها إلّا دراسات نادرة؛ بغية إثراء الدّراسات المستقبليّة المتعلّقة بمثل هذا الموضوع .

أهمّيّة البحث:

تكمن أهميّة البحث في إظهار النّزعة الاستقلاليّة للكيانات الإسلاميّة الّتي ظهرت في ذلك العصر؛ بدوافع سياسيّة واجتماعيّة ومذهبيّة، فتحوّلت من التّكامل إلى التّنافر ، ومن القوّة إلى الضّعف، ومن الوحدة إلى التّفرّق، ومن البقاء إلى الاندثار، فكانت إمارة باري (Bari) واحدة من الكيانات السّياسيّة الّتي انتهجت أسلوب إمارة الاستيلاء؛ وقطع صلتها بالدّولة الأغلبيّة الّتي من المفترض أن تكون امتدادًا لها.

من جانب آخر ، فإنّنا في هذا البحث نحاول أن نبيّن أن نزعة الاستقلال الّتي اتّبعتها إمارة باري (Bari) لم تتغيّر في ذهنيّة أمرائها، بل أضحت تقليدًا يسري بين الأمراء الّذين تعاقبوا على حكم هذه الإمارة، وهذا الاتجاه أدّى إلى تراكم أعباء كثيرة دون شك في اعتماد الإمارة على قدراتها الذّاتيّة أمام تحالف البيزطيّين مع اللّومبارديّين وغيرهم ضدّ هذه الإمارة.

منهج البحث:

بالنّظر إلى المعطيات القليلة الّتي اشارت إلى موضوع البحث فإنّنا اعتمدنا على منهج التحليل بما توفّر لدينا من القدر اليسير من المعلومات الشّحيحة والنّادرة، وفي بعض المواضع لجأنا إلى المنهج المقارن لعلّنا بذلك نسدّ بعض الثّغرات المتعلّقة بمتطلّبات البحث، آخذين في الاعتبار بعض الاقتباسات والاستنتاجات والتّعليقات الّتي نراها لازمة كلّما تطلّب الأمر ذلك، بغية الوصول إلى استنباط نتائج منطقيّة؛ تجيب عن إشكاليّة البحث.

حدود البحث:

- الحدود الموضوعيّة: تحدّد موضوع البحث في غزو المسلمين لمدينة باري (Bari) الإيطاليّة ، واتّخاذها إمارة إسلاميّة.
- الحدود المكانيّة: مدينة باري (Bari)؛ الّتي تقع في الجنوب الإيطالي على ساحل البحر الأدرياتي (Mare Adriatico).
- الحدود الزمنيّة: تقتصر بين عامي 226-257هـ/841-871م

خطة البحث:

- مقدّمة البحث.
- المحور الأول : التّسمية والموقع الجغرافي لمدينة باري (Bari).
- المحور الثاني: غزو مدينة باري (Bari) .
- المحور الثالث: تأسيس إمارة باري (Bari) .
- المحور الرّابع: سقوط إمارة باري (Bari).
- خاتمة ومصادر البحث.

1. التّسمية والموقع الجغرافي لمينة باري (Bari)

جاء في الموسوعة الحرّة ذكر باري (Bari) باسم مقاطعة، ولعلّ ذلك تقليداً لما كان يسميه العرب؛ حيث كانوا يسمّون المدن بأسماء أقاليمها أو مقاطعاتها، ومقاطعة باري (Provincia di Bari)، تقع جنوب إيطاليا في إقليم بوليا، (Puglia) وعدد سكانها في هذا العصر 1.595.496 نسمة

ومساحتها 5139 كيلومتر مربع، تحدّها غربًا مقاطعة باراليتا أندريا تراني (Provincia di Barletta-Andria-Trani)وإقليم بازيليكاتا (Basilicata)عند مقاطعة بوتنسا (Potenza)وجنوبا عن مقاطعة ماتيرا، (Provincia di Matera)وجنوبا أيضا مقاطعة تارانتو (Provincia di Taranto)وعن الجنوب الشرقي مقاطعة برينديزي (Provincia di Brindisi)، وتواجه البحر الأدرياتي(Mare Adriatico) من الشمال والشرق .(انظر إلى شكل: 1)

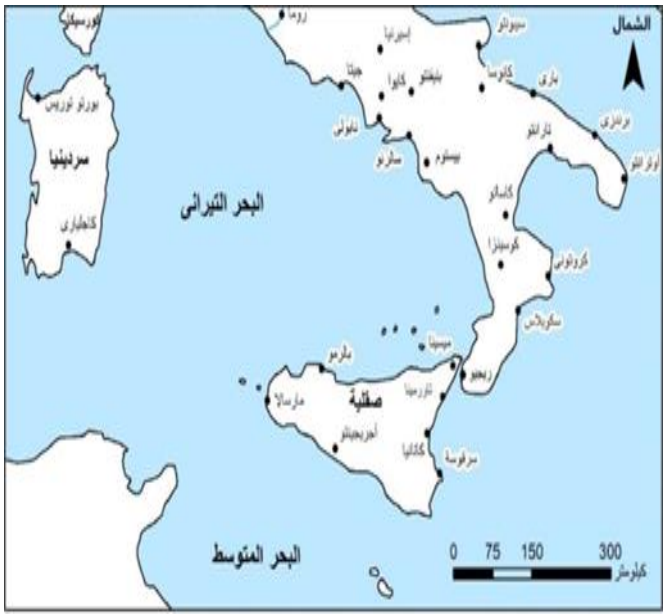

شكل1: موقع مدينة باري

(https://ar.wikipedia.org/wiki)

وقد ورد ذكر مدينة باري (Bari) في المصادر الإسلاميّة، باسم (بارة) تارة وتارة أخرى باسم باري (Bari) فالبلاذري في كتابه فتوح البلدان تحدّث عنها في سياق حديثه عن بلاد المغرب، وأسماها (بارة)، وذكر أنّها تقع على شاطئ البحر، وهي ضمن مجال جغرافي واسع من أرض المغرب، وحدّد المسافة بينها وبين برقة بشكل تقريبي خمسة عشر يوماً؛ تزيد أو تنقص عن تلك المسافة (البلاذري، 1987، ص328)، وهذا التّحديد الّذي ذكره البلاذري يؤكد فرضية مفهوم بلاد المغرب أنّها تشمل جزر البحر المتوسّط وجنوب إيطاليا، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تسمية (بارة) قد نجدها تتكرر على أسم مكان آخر كما اعتاد المسلمون ذلك في تكرار الأسماء.

من ناحية أخرى أشار الإدريسي إلى هذه المدينة باسم باري (Bari) وحدّد المسافة بينها وبين مرسى ميلان (Milano) باثنين وعشرين ميلاً، ووصفها بأنّها ذات مساحة واسعة وهي عامرة ، وبها دار صناعة المراكب (الإدريسي، 2002 ، ص 763)، ويبدو أن الإدريسي في وصفه لمدينة باري(Bari) بأنها عامرة نظراً لما تميّز به موقعها على ساحل البحر ، ونشاطها التجاري ، وكثرة عمارتها وسكّانها، لكن الاسم ذاته كان يطلق على قرية من نواحي بغداد كما أشار إلى ذلك ياقوت الحموي (ياقوت الحموي،1977، ص 321)، وصفي الدين البغدادي، (البغدادي، 1992، ص 152)، ونلاحظ أيضاً ذكر مدينة باري (Bari) أنّه كان يطلق على اسم مدينة من مدن الهند كانت عاصمة لإحدى الممالك الهنديّة؛ وتقع في النّاحية الشرقيّة منها،(ابن سباهي، 2006، ص 190)، ويتبن لنا من النّصوص السّابقة أمرين: الأمر الأول أن اتّفاق الاسم مع اختلاف موضعه جرت عليها عادة المسلمين الأوائل ، وقد صنّف ياقوت الحموي كتاباً عالج من خلاله هذا الموضوع أسماه (المشترك وضعًا **والمختلف** صقعًا)، أما الأمر الثّاني فإن اسم باري (Bari) لا يستبعد أن يكون عربي الأصول بناءً على المعطيات الّتي أشرنا إليها قبل قليل.

من جانب آخر، لابد أن نشير إلى أهميّة موقع مدينة باري (Bari) التي تقع على ساحل البحر الادرياتي (Mare Adriatico) نظرًا لكون مينائها يعدّ حلقة وصل بين الشّمال والجنوب، لذلك تنافست القوى الإسلاميّة والبيزنطيّة على تحقيق النّفوذ البحري في تلك المنطقة، ومن ثمّ يمكن ربطها بضفاف جنوب البحر المتوسط، (انظر إلى شكل: 2،)

شكل 2: ساحل البحر الأدرياتي

(/https://www.marefa.org)

وقد ارتبطت باري (Bari) بعلاقات تجاريّة جيّدة مع بيزنطة قبل دخول المسلمين إليها، حيث كان الطريق التّجاري البحري قد شهد نشاطًا ملحوظًا في ذلك الوقت ، إذ تنطلق السّفن التّجارية المحمّلة بالبضائع الشرقيّة من بيزنطة وتتجه إلى صقليّة (Sicilia) ؛ ومنها إلى مدينة أمالفي (Amalfi) ثمّ إلى مدينة نابولي(Napoli) ومدينة باري (Bari) ومدينة البندقيّة – كما سمّاها العرب – أو فنيسيا (Venezia) كما سمّاها الإيطاليّون، ويمثّل البحر الأدرياتي (Mare Adriatico) وساحله أهميّة؛ لكونه حلقة وصل بين آسيا الصّغرى عبر بحر مرمرة ومضيق البسفور وجنوب إيطاليا ثمّ البحر المتوسّط وشمال أفريقيا، كما تعدّ بعض مدن الجنوب الإيطالي محورًا أساسيًّا في ربط العلاقات التّجارية بينها وبين بيزنطة، فكانت مدينة البندقية (Venezia) على سبيل المثال تقوم بجلب بضائع الشّرق مثل التّوابل والحرير، وربّما تقوم بدور الوسيط التّجاري لتعرض تلك البضائع في مدينة بافيا (Pavia) التي تقع في الشّمال الإيطالي، (أرشيبالد، د.ت، ص189).

ومع بداية القرن الثّالث الهجري/التّاسع الميلادي كانت سياسة المسلمين تقتضي تقويض النّفوذ البيزنطي في المنطقة وجعل البحر الأدرياتي (Mare Adriatico) تحت سلطتهم ونفوذهم، وكان المسلمون في فترة لاحقة قد دخلوا في صراع عسكري مع البندقية (Venezia) لأول مرة سنة 270هـ/ 883م في البحر الأدرياتي (Mare Adriatico)، فتغلّبوا عليهم؛ وغنموا الكثير من سفنهم ، ما جعل المسلمون بذلك الانتصار يبسطون سيادتهم على البحر الأدرياتي (Mare Adriatico) (أرسلان، د.ت، ص 154)، ومن ثمّ نعتقد أنّ اتخاذ المسلمين قبل ذلك الحدث الّذي أشرنا إليه مدينة باري (Bari) قاعدة لهم في إيطاليا؛ كان بهدف انطلاق غزوات أخرى منها إلى مناطق الجنوب الإيطالي، وفي

الوقت ذاته لا يستبعد أن تكون مدينة باري (Bari)مركزًا تجاريًّا مهمًّا للتّجارة البحريّة، كما وصفها الإدريسيّ في وقت متأخّرٍ وأشرنا إلى ذلك قبل قليل، الأمر الّذي جعل من هذه المدينة السّاحليّة المهمّة محلّ نزاع بين المسلمين وخصومهم البيزنطيين ، وقد أفضى ذلك النّزاع المسلّح بسيطرة لويس الثّاني (Luigi II) الأصغر (825-871م) الإمبراطور الرّوماني على مدينة باري (Bari) سنة251هـ/ 871م وطرد المسلمين منها، وبذلك خسر المسلمون قاعدة مهمّة على السّاحل الجنوبي لإيطاليا (أحمد، 1980، ص 27) ، وقد انعكس هذا الحدث سلباً على الأسطول الإسلامي في البحر المتوسّط عموماً، خصوصاً وأنّ الأسطول البيزنطي اغتنم فرصة فقدان المسلمين لبعض قواعدهم البحرية، واحتشد ذلك الأسطول في مياه صقليّة (Sicilia) سنة267هـ/ 880م، وشكّل خطرًا على تجارة المسلمين مع الجنوب الإيطالي، ورغم أنّ البيزنطيين فقدوا السّيادة على جزيرة صقلية (Sicilia) إلاّ أنهم استطاعوا افتكاك مدينة باري (Bari) ثمّ تارنت (Taranto)من المسلمين وذلك في حدود سنة290هـ/ 902م، لتبدأ مرحلة أخرى من التّوسع البيزطي لمدن السّاحل الإيطالي (أرشيبالد، د.ت، ص 215-221).

نستنتج من ذلك أن مدينة باري (Bari) كانت محطّ اهتمام من المسلمين وأنّها كانت مركزًا مهمًّا؛ نظرا لموقعها الجغرافي المميّز الّذي جعل من مينائها محطّةً تجاريّةً نشطةً، ترتبط بعلاقاتٍ تجاريّةٍ مع موانئ البحر المتوسّط الأخرى ، وقد أسهمت تجارتها في توسع عمرانها وازدياد نفوذها، كما أنها كانت من أهمّ المراكز العسكريّة الّتي تقع على ساحل البحر الأرياتي (Mare Adriatico) في الجنوب الإيطالي، ومن مينائها تنطلق الحملات البحرية ضد خصوم المسلمين من الروم البيزنطيين ، حيث إنّ باري (Bari) كانت حاضرة في المشهد التّاريخي خلال أوقات السلم والحرب، بل كانت محور أحداث الصراع البحري بين المسلمين وخصومهم، ولا شك أنّ ذلك النّزاع بين الطرفين كان يهدف للسّيطرة على تلك المدينة نظرًا لأهميّتها الجغرافيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة.

2. غزو مدينة باري (Bari)

1.2. مفهوم الغزو وتطوّر مدلوله:

بالنّظر إلى المعاجم اللّغوية فقد ورد في كتاب لسان العرب أنّ الغزو معناه " **السّير إلى قتال العدوّ و انتهابه ....وإذا قيل غزوة فهي المرّة الواحدة من الغزو....والمغازي مواضع الغزو**" (ابن منظور، د.ت، ص 123-124)، وعلى هذا يتّضح أنّ مفهوم الغزو من حيث مدلوله اللّغوي هو قيام مجموعة من القوم بالانتقال إلى قوم آخرين بسلاحهم والسّيطرة على أملاكهم وأراضيهم، وفلان "**غزا القوم أي هاجمهم في ديارهم**"، (أبو الدهب، 2002، ص 431)، وكان هذا النّمط من الغزو منتشراً بين العرب قبل البعثة النّبويّة، ومنتشرٌ أيضًا بين الأمم الأخرى.

في العصر النّبوي تطوّر مدلول الغزو ومفهومه ليتحوّل إلى مبدأ أخلاقي متعدّد الجوانب، فكانت غزوة بدر الكبرى- على سبيل المثال- الهدف منها استرداد الحقوق المتمثّلة في أموال المسلمين الّتي استولت عليها قريش (ابن عبد البر، د.ت، ص 102-121)، وفي غزوة بني قينقاع الّتي تطلّب الموقف القيام بها للدّفاع عن شرف وكرامة امرأة مسلمة، وإغاثتها، بعد أن أهانها اليهود في المدينة، (هارون، 1985، ص155) وكانت غزوة فتح مكة بسبب غدر بني بكر وقريش بخزاعة ونقضهم صلح الحديبية (ابن كثير،1997، ص 508-616)، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ غزا سبعًا وعشرين غزوة (ابن سيد الناس، د.ت، ص 353)، وأن تلك الغزوات أسست مشروعية الجهاد، والدّفاع عن الحقوق، وانطلاق الفتوح الإسلاميّة للبلدان فيما بعد خلال عصر الخلفاء الراشدين.

في العصر الأموي وبعد تحوّل الخلافة إلى مُلك؛ انحرف بعض الولاة الأمويّين عن مقاصد الغزوات وأهداف الفتوحات، ومن ذلك أن أوّل من أخذ الجزية ممّن أسلم من أهل الذّمّة هو الحجّاج بن يوسف، وحين سمع الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أنّ حبّان بن شريح يأخذ الجزية من المسلمين أرسل يقول له: " **أمرت رسولي أن يضربك على رأسك عشرين سوطًا، فضع الجزية عن من أسلم ، قبح الله رأيك، إنّ الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا**" (المقريزي، 1998، ص 227) وقد تسبّب سلوك بعض الولاة الأمويّين في بلاد المغرب إلى ردّة فعلٍ غاضبةٍ، تحوّلت إلى ثورة عرفت بثورة الأشراف، وذلك بعد أخذ الجزية ممّن أسلم من البربر (الطبري، د.ت، ص254-255) والتّطاول على حرماتهم (ابن عذاري، 1983،ص 52-54)، وذلك الواقع يوضح لنا أنّ ذهنية بعض الخلفاء والولاة الأمويّين كانت تركّز على الغنائم من خلال القيام بالغزوات ، ومخالفة أحكام الإسلام في أخذ الجزية من المسلمين، ما يجعل مدلول الغزو وأهداف القيام بالغزوات يأخذ البعد المادي في بعض الأحيان كما رأينا.

أما خلال العصر العباسي الأول ، حيث الدولة في أوج قوّتها فإنّ العبّاسيّين كانوا يقومون بغزو البلدان لصدّ هجمات خصومهم سواء كانوا من المسلمين بدوافع مذهبيّة أو من غيرهم من الأمم الأخرى بدوافع عدائيّة وصراع النّفوذ، وكان هدف الدّولة من الغزو في كثير من الأحيان هو التّوسع وضمّ الأراضي لزيادة الخراج، ومن ثم زيادة أموال الدّولة، وما يلّ على ذلك هو ما قاله هارون العباسي " **أيّتها السّحابة امطري حيث شئت فسيأتي خراجك**" (السعيد، 2015، ص13)، لذلك؛ فإن دافع الغزو في ذهنية بعض خلفاء بني العباس كان يعني التوسّع، وامتلاك الأرض، وزيادة الأموال، مع الإقرار بأن غزو الفتوح كان لا يزال حاضراً سواء في العصر الأموي أو العباسي، لكن المتغيّر هو غايات الغزو وتبدّل مفهومه ومدلوله لدى بعض فئات السلطة الحاكمة من الخلفاء أو الأمراء كما أشرنا إلى ذلك ، ويبدو أنّ الغاية من غزو باري (Bari) كان بهدف التوسّع والسّيطرة على الأراضي وزيادة النّفوذ ، وتملّك الموانئ البحريّة، لتكون من روافد الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط ، وربط موانئ جنوب المتوسط بشماله وتعزيز قوة الأسطول الإسلامي أمام القوى البحرية الأخرى .

2.2 دوافع غزو باري (Bari):

كانت جزيرة صقلية (Sicilia) وجنوب إيطاليا عمومًا منطلقًا لغزوات البيزنطيّين لسواحل إفريقيّة، خصوصًا بعد غزوات المسلمين المتكرّرة لتلك المناطق منذ منتصف القرن الأوّل الهجري وحتّى بداية القرن الثاني حيث كانوا يهدفون من تلك الغزوات مد نفوذهم على البحر المتوسّط وتأمين تجارتهم (ابن الأثير، 1997، ص 219-226)، وبما أنّ هذا التّنافس والصّراع الّذي نشب بين الطّرفين ردحًا من الزّمن، فقد كان في ذهنية ولاة إفريقيّة التّخطيط لوضع حدٍّ للأخطار الّتي تهدّد وجودهم في البحر المتوسّط ، وينظرون بعين الاعتبار لتلك الأخطار من النّاحية السّياسيّة والاقتصاديّة، فمن النّاحية السّياسيّة أراد المسلمون بسط نفوذهم وسيادتهم على البحر المتوسّط والسّيطرة على أهمّ القواعد البحريّة وسواحل جنوب إيطاليا ، أما من النّاحية

الاقتصاديّة فإن تأمين طرق التّجارة البحريّة كان دافعًا مهمًّا لقوة الدّولة الأغلبيّة، وبما أنّ تجارة الأغالبة قد تعرّضت للقرصنة المتكرّرة من البيزنطيّين؛ فقد أدركوا أنّه لابدّ من مجابهتهم وإعداد القوّة العسكريّة لذلك؛ لطرد أسطول البيزنطيّين من البحر المتوسّط؛ بل وغزو أهمّ قواعدهم البحريّة الحصينة فيما بعد وأهمّها صقليّة (Sicilia) (سالم، والعبادي، 1969، ص97)، لكنّ الأغالبة حينئذ لم يكن لهم القدرة على تحقيق أهدافهم الّتي أشرنا إليها؛ لأنّ البيزنطيّين كانوا يتفوّقون عليهم في العتاد الحربي ، ومكّنهم ذلك من شنّ غارات عديدة على ساحل إفريقيّة، حتى اضطرّ الأغالبة إلى اتّباع سياسة المهادنة مع البيزنطيّين ؛كسبًا للوقت وبناءً للقدرات العسكريّة ، فعقدوا معاهدة صلح مع البطريق (قسطنطين) حاكم صقليّة (Sicilia) وبين الأمير إبراهيم بن الأغلب، حيث تقضي هذه المعاهدة بوقف النّزاع والقرصنة البحريّة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، لكنّ تلك المعاهدة لم تصمد طويلاً، حيث تجدّدت معارك ضارية بين الأسطول الأغلبي والأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، وأمام شدّة المعارك الضارية بين الطرفين ؛ فضلا عن الخسائر الجسيمة؛ فقد اضطرّ الطرفان إلى تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات أخرى، وكان ذلك في عهد الأمير أبي العباس إبراهيم بن الأغلب (سالم، والعبادي، 1969، ص98)، وفي خضمّ تلك الأحداث؛ وحالة النّزاع العسكري بين المسلمين والبيزنطيّين؛ والوضع المتذبذب بين حالة السِّلم تارةً والحرب تارةً أخرى؛ كان ذلك كلّه دافعًا لعزم المسلمين على محاولة حسم الصّراع لصالحهم؛ لغزو الجنوب الإيطالي كله؛ وصولاً إلى مدينة باري (Bari)،بغية السّيطرة على البحر المتوسّط واتّخاذ قواعد متقدّمة ثابتة على الأراضي الإيطاليّة؛ ينطلقون منها للدّفاع عن أسطولهم وتجارتهم البحريّة متى ما تتطلّب الأمر ذلك.

ولتحقيق تلك الأهداف؛ نرى أنّ الأغالبة ركّزوا في بادئ الأمر على غزو جزيرة صقلية (Sicilia) وفتحها ؛ باعتبارها قاعدةً متقدّمةً في البحر المتوسّط ولا تبعد عن إفريقيّة كثيرًا، فأرسل الأمير الأغلبي زيادة الله بن الأغلب أسد بن الفرات على رأس جيش إلى صقليّة لتحقيق هذا الهدف، وذلك في عام 212هـ/828م، فاستطاع أسد بن الفرات أن يخترق تحصينات البيزنطيين ويصل إلى صقلية (Sicilia) ويتوغّل فيها حتّى وصل إلى سرقوسة (Siracusa) ، ثمّ بعد ذلك تقدّم الجيش الإسلامي لغزو بلرم (Palermo) وفتحها، فأصبحت عاصمة لهم عام 216هـ/832م (عباس،1975، ص35)، وذلك بعد جهود مضنية، لأنّ الرّوم تحصّنوا بها، واستعدّوا للقاء المسلمين، ومن المعلوم أنّها كانت لها أسوارًا حصينةً منيعةً، لكنّ المسلمين أصرّوا على فتحها، لأنّها تمثّل أهمّيّةً من حيث الموقع والمكانة السّياسيّة والاقتصاديّة، فهي عاصمة الجزيرة وأكبر مدنها، وفي الجانب الآخر تمسّك الرّوم بالبقاء والدّفاع عن بلرم (Palermo)حتّى آخر لحظة، لأنّهم كانوا يدركون أنّ سقوطها في يد المسلمين يعني نهايتهم في الجزيرة كلّها، وقد وجه المسلمون إنذارًا للحامية الرّوميّة الّتي تتحصّن داخل أسوار المدينة، لكنّهم لم يستجيبوا لذلك، وكان قائد جيش المسلمين زهير بن عوف قد وضع خطّة لحصار المدينة وإجبارها على الاستسلام ، فباشر في حصارها بجيشه الّذي كان قوامه ثلاثون ألفًا، ومع مرور الأيّام واشتداد الصّيف ونقص المؤن داخل المدينة اضطر حاكم مدينة بلرم (Palermo) إلى الاستسلام بعد أن أدّى ذلك الحصار الّذي فرضه المسلمون إلى هلاك المئات من السّكّان؛ حتّى قيل أنّ المسلمين عند دخولهم المدينة وجدوا من سكانها ثلاثة آلاف فقط، وقد طلب حاكم المدينة الأمان من زهير بن عوف فمنحه إياه وغادر المدينة بحرًا رفقة أهله وما جمعه من ماله، (المدني، د.ت، ص 70-71)، وهكذا تمكّن المسلمون من أن يجعلوا بلرم (Palermo) قاعدة للانطلاق إلى غزوات أخرى وتوسيع نفوذهم في البحر المتوسط.

من جانب آخر، يعدّ استقرار العرب في صقليّة (Sicilia) ثمّ بعد حين ضمّ الجنوب الإيطالي والاستقرار فيه أمرًا بالغ الأهميّة في تاريخ المنطقة؛ وزيادة النّفوذ والتّوسّع الإسلامي، ففي حين بدأت فيه الخلافة العباسية تعاني من الضّعف السياسي والعسكري ، فإنّ البحريّة الإسلاميّة في البحر المتوسّط أصبحت أكثر قوّة منذ عام 215هـ / 830م ، وتمكّنت من أن تجعل هذا البحر تحت نفوذها أكثر من السّابق، ومن خلال الأسطول الإسلامي والحصون السّاحلية استطاع المسلمون فرض رقابة عليه وحمايته من الأطماع الخارجيّة (برادفورد، 2008، 395).

بعد ذلك استطاع المسلمون الاستيلاء على جزيرة بانتيلاريا (Pantellaria) عام220هـ/ 835م من بيزنطة، وهي جزيرة كانت تسمّى عند العرب باسم جزيرة قوصرة (البكري ، 2002، ص 222)، تقع بين صقليّة إفريقيّة، وهي أقرب إلى سواحل إفريقيّة، فتحقق للمسلمين بذلك هدف تأمين الملاحة البحريّة بين صقليّة (Sicilia) وإفريقيّة؛ ووصول الإمدادات إلى الأماكن الجديدة الّتي أصبحت بيد المسلمين (العريني، 1982، ص 287).

من ناحية أخرى، كان التّحالف الّذي نشأ بين بلرم (Palermo) ومدن السّاحل الغربي لإيطاليا ضدّ اللّومبارديّين في داخل إيطاليا قد هيّأ الفرصة للتّقارب بين المسلمين في صقلية (Sicilia) ونابولي (Napoli)، وتسبّب في ضعف القوّة البحريّة البيزنطيّة في البحر التّيراني (Mar Tirreno)، ثمّ تعرّض بعد ذلك أسطول البحريّة البيزنطيّة إلى غارات المسلمين في بحر الأيوني (Mare Ionio) والبحر الأدرياتي (Mare Adriatico) ، ورغم محاولة مدينة البندقيّة (Venezia) الإيطالية نجدة أسطول البيزنطيين؛ إلّا أنّهم تلقّوا هزيمةً على يد البحّارة المسلمين في خليج تورنتو(Taranto)، ودمّروا معظم سفنه، وقتل الكثير من الجنود الذين أتوا من البندقية (Venezia) على متن تلك السفن الحربية (فازيلييف، د.ت ، ص 161-162).

في غضون ذلك ؛ كان المسلمون يسعون إلى الحصول على المزيد من الأراضي الإيطالية، خصوصًا تلك الّتي لها موانئ بحريّة مهمّة، وقد استغلّ المسلمون فرصة النّزاع الدّاخلي بين الإيطاليّين على حكم الإمارة اللّومبارديّة على السّاحل الجنوبي الإيطالي، حيث كان رادلكيس (Radelchis) يمثل أحد طرفي النّزاع مع مناصريه ، وقد استعان بمسلمي صقليّة (Sicilia) وإفريقيّة ضدّ خصمه سكينولف (Sikenolf) الّذي استعان ببعض الأندلسيّين في ذلك النّزاع، لكنّ حلف رادلكيس (Radelchis) استطاع أن يلحق الهزيمة بخصمه، واستطاع المسلمون من خلال ذلك أن يصلوا إلى باري (Bari) ويستولوا عليها (العريني، 1982، ص 287).

وهكذا نرى أنّ دوافع غزو باري كان ضمن سياسة الاستيلاء على مناطق ذات أهميّة، وقد جاءت على مراحل من النّزاع البحري بين المسلمين والبيزنطيّين، ونتج عن ذلك ربط جنوب إيطاليا والجزر المحيطة بها بشمال إفريقيّة لتكون تحت سلطة المسلمين، وتأمين الطرق البحريّة، وجعل التّفوّق العسكري سببًا في السّيادة البحريّة للمسلمين في البحر المتوسّط، وتمركز الحاميات الإسلاميّة في المناطق السّاحليّة الإيطاليّة مثل باري (Bari) للحيلولة دون وقوعها بيد القوى البيزنطيّة.

3.2 تغلّب المسلمين ودخول باري (Bari):

بعد أن سيطر المسلمون على صقلية (Sicilia) ومراكز مهمّة من الجنوب الإيطالي كما أشرنا إلى ذلك، فإنّ ساحل باري (Bari) أصبح هدفًا محتومًا بالنّسبة للمسلمين الّذين أحرزوا انتصارات عديدة في حوض البحر المتوسّط، وفي غضون ذلك كانت باري (Bari) خاضعة لسيطرة البيزنطيّين ، لكن محاولات اقتحامها كانت في حدود عام 225هـ/839م، على يد رجل يسمَّى (جبلة)؛ الّذي قاد غزوة على المدينة في التّاريخ المذكور تقريبًا،(البلاذري،1987، ص328) ولكنّه فشل في تحقيق ذلك الهدف، ولعلّ ذلك الفشل مردّه إلى قوّة تحصينات المدينة؛ وقوّة العدد والعتاد الّذي كان لدى البيزنطيّين، وبعد تلك الغزوة ؛ ظهر خلفون البربري في صقليّة (Sicilia) قائدًا عسكريًّا يمتاز بالقوّة العسكريّة الكافية الّتي يمكنها القيام بالغزو خارج صقليّة (Sicilia)، وكان يتحيّن الفرصة للقيام بغزو باري (Bari) وافتكاكها من البيزنطيّين ، وأثناء ذلك كان باندوني (Bandoni) حاكم باري (Bari) يتوجّس خيفة من خلفون البربري وكان يستعدّ للمواجهة معه حتّى لا تسقط المدينة بيده (أماري، 2003، 421) .

يبدو أنّ باندوني (Bandoni) كان قد اعتمد على أسوار المدينة المحصّنة الّتي من المفترض أن تحميها من الغارات البحريّة نظرًا لكونها مدينة تقع على ساحل البحر الأدرياتي (Mare Adriatico)، لكنّ انتصارات المسلمين في صقلّيّة (Sicilia) وسيطرتهم على الطّرق البحريّة؛ كان أمرًا مرعبًا بالنّسبة لحاكم باري (Bari)، لذلك كان يريد على ما يبدو مهاجمة خلفون وجيشه خارج أسوار المدينة، لكنّ الأخير اعتمد على عنصر المفاجأة لعدوه برغم الاستعدادات للمعركة؛ والحيطة والحذر من الخطر الدّاهم على المدينة، وعلى حين غرّة استيقظ أهالي مدينة باري (Bari) على أصوات الجند المسلمين داخل المدينة في ليلة اشتدّ فيها المطر حتى وُصفوا أنّهم " **من طرف جمع من الشياطين .... وكانوا مرتدين لباسًا غريبًا ، ومسلّحين برماح خفيفة قناتها من قصب ، وقضى سريعًا على كلّ مقاومة، وألقى أحد الأعيان في البحر لمّا حاول المفاوضة، واستولى خلفون على المدينة**" (الطّالبي، 1995، ص 118-119).

ولا نعرف الأسباب التّفصيليّة الّتي أدّت إلى تغلّب المسلمين في هذه المعركة على خصمهم ودخول المدينة؛ الّتي كانت محصّنة بالأسوار، والجنود كانوا يترقّبون وصول خلفون البربري وجيشه، فكيف انهارت قوّاتهم بتلك السّرعة في ليلة واحدة ؟

ولتفسير ذلك؛ من الممكن أن يكون خلفون البربري قد اتّبع سياسة حصار المدينة ومنع المؤن عنها لفترة من الأيام ، لأنّ المسلمين كانوا يتّبعون هذه السياسة الحربية خلال العصر الوسيط ، والاحتمال الثاني يمكن أن يكون الجيش الّذي أتى به خلفون البربري أكثر عددًا وعدّة وبالتالي فإن ذلك يعدّ سببًا منطقيًّا من أسباب النّصر، أما الاحتمال الثالث فإنّ التّوقيت الّذي اختاره خلفون البربري للهجوم على المدينة لم يكن متوقعًا في ذهنية البيزنطيّين أو على الأقل حاكم باري (Bari)، أما الاحتمال الرابع فربّما كان عامل خيانة الجند لحاكم باري (Bari) كان قد أدّى إلى ذلك المصير، خصوصًا وأنّ هناك نزاعًا داخليًّا قد حصل بين الأمراء في تلك الفترة (الطّالبي، 1995، ص 116-117).

وعلى أيّة حال فإنّ دخول المسلمين إلى مدينة باري (Bari) والتّغلّب على البيزنطيّين يعدّ حدثًا ذا أهميّة، لأن ذلك مكّنهم من نشر الإسلام فيها وما جاورها من البلدات الواقعة على ساحل البحر الأدرياتي (Mare Adriatico)، وإقامة إمارة إسلاميّة فيها، كما أنّ هذا الغزو الّذي مكّن المسلمين من فتح مدينة باري (Bari) واتخاذها قاعدة لهم في إيطاليا يشبه إلى حدّ كبير فتح مدينة بلرم (Palermo) قبل ذلك واتخاذها قاعدة في صقليّة(Sicilia) (الدوري، 1980، ص 95-96) وكلا المدينتين اكتسبتا موقعًا مكّنهما بأن يكونا في طليعة المدن من حيث القيادة والإمداد العسكري، فضلا عن كون كلّ مدينة عاصمة سياسيّة ومقرًّا للحكّام تدار من خلالها على ما يبدو دفّة السّياسة والعلاقات الدولية ، وهذا ما دعا السّلطة السّياسيّة للاهتمام بتحصينهما بالأسوار والحصون.

3. تأسيس إمارة باري (Bari):

بعد أن استطاع خلفون البربري اقتحام مدينة باري (Bari) بدأت سيادة المسلمين على المدينة ، وقبل الحديث عن تأسيس إمارة فيها يبرز لنا التساؤل الآتي من هو خلفون البربري الّذي أصبح أوّل أمير لباري؟ في الواقع لم نجد ترجمة له في كتب المصادر ولا التراجم لأنّ كتّاب العصر الوسيط يركزون في كتب التراجم والطبقات وكتب التاريخ على مركز الدّولة وحكّامها وليس على الأطراف في معظم الأحيان؛ مع بعض الاستثناءات القليلة في هذا السّياق، وعلى ذلك تبقى شخصية خلفون البربري غير معروفة سوى ما ذكره البلاذري في إشارة عابرة؛ حيث قال عنه " ... **ويقال أنّه مولى لربيعة**" (البلاذري،1987، ص 328) وربيعة هي إحدى القبائل العربيّة، أمّا بداية تأسيس الإمارة فيبدأ بدخول خلفون البربري الّذي يصادف بداية عهد الخليفة العباسي المتوكّل على الله (232هـ /847م) كما أشار إلى ذلك البلاذري أيضًا، ويبدو أنّ بعض المؤرّخين المتأخّرين يرون غير هذا التاريخ المشار إليه ، حيث يذكر إبراهيم طرخان أنّ بداية تأسيس إمارة باري (Bari) كان بتاريخ 226هـ/841م (طرخان،1966، ص215) ويوافقه في هذا الرأي علي الكتاني (الكتاني، 2005،ص 155) في حين يذكر عبد العزيز العمري أن تأسيس باري (Bari) كان عام 329هـ / 940م (العمري ، عب العزيز، 1421، ص205) ولعلّ الأخير يقصد عام 229هـ ووقع سهو منه في طباعة التاريخ المذكور، لكنّ تلك الآراء تقريبيّة ولم تدعّم بالمصادر الّتي تجعل من إحدى التواريخ المذكورة مقبولة بشكل علمي، وعلى ما يبدو أن ما تناوله البلاذري في إشارته القصيرة إلى بداية عهد الإمارة الإسلامية في باري (Bari) الّذي يوافق وصول المتوكّل إلى الخلافة في بغداد هو الأقرب إلى الصّواب، وربّما كان المؤرّخ الإيطالي جوزيي موسكا (Giosuè Musca) وهو أستاذ تاريخ العصور الوسطى قد اعتمد على وثائق إيطالية أرّخت لتلك المرحلة من تاريخ العصور الوسطى فجعل بداية تاريخ إمارة باري(Bari) ما يوافق عام 232هـ وذلك عندما ألّف كتابه في دراسة عن هذه الإمارة بعنوان :إمارة باري 847-871م (L'emirato di Bari 847-871) وهي الدّراسة المرجعيّة الوحيدة التي خصّصها المؤلف في كتاب فيما أعلم عن تلك الإمارة.

من جانب آخر، فإنّ الظّروف السّياسيّة السّيّئة الّتي سادت بين علاقات الأمراء البيزنطيّين المتنازعين على السّلطة في باري (Bari) هي الّتي أكسبت خلفون البربري هذه الفرصة ليكون حليفًا لأحد الخصمين في النزاع، ويبدو أنه استعمل الدّهاء والمكر حتّى يصل إلى السّلطة، وهو ما حدث فعلاً؛ لأن الأمير باندوني (Bandoni) حاكم باري (Bari) اضطر للخروج من المدينة كما تمت الإشارة إلى ذلك، أمّا رادلكيس (Radelchis) حليف خلفون فكان مجرّدًا من السّلطة حينها، وتفاجأ بواقع جديد، حيث إنّ خلفون لم يتح له الفرصة بأن

يكون حاكمًا على باري (Bari)، فصارت السلطات بيد الأمير المسلم خلفون البربري ، بل إنّ رادلكيس (Radelchis) كان قد اضطرّ للاستحواذ على ثروات الكنائس حتّى يفي بتعهّداته الّتي قطعها على نفسه بدعم خلفون وجنوده بالأموال اللّازمة لحملته (أماري،2003، 421-422).

ولا يعرف ما إذا كان خلفون البربري قد استقلّ بالإمارة عن الدّولة الأغلبية أم لا، أو أنه أظهر تبعية الإمارة الإسميّة إرضاءً للأغالبة حتّى لا يقع في صدام معهم، إذ لم تشر كتب المصادر بذكرٍ عن هذا الموضوع ، ولم توضّح هل كانت إمارة خلفون على باري (Bari) إمارة استيلاء أو إمارة استكفاء، وفي تقديري الشّخصي من المحتمل أن تكون إمارة استيلاء، لأنّ التّدوين التّاريخي في ذلك الوقت يحظى باهتمام الطبقة الحاكمة، وبما أنّ الكتّاب كانوا تحت رقابتهم فإنّه من المستبعد أن نجد ذكرًا للأمراء الّذين خرجوا عن بلاط السّلطة الحاكمة وأسسوا كيانًا سياسيًّا لأنفسهم.

وبعد أن استقلّ خلفون البربري بإمارة باري (Bari) بدأ يطمح لمدّ نفوذه للمناطق المجاورة لها على طول الساحل المقابل للبحر التيراني (Mar Tirreno)، لكن رادلكيس (Radelchis) حليف خلفون استغلّ هذه العلاقة ليستخدمها لمآربه ، فأظهر المودّة والولاء لحليفه حتى يزداد اطمئنانًا إليه، وطلب إليه أن يقف معه ضد خصمه سيكونولف (Seconolf) أملاً في الانتصار عليه وإلحاق هزيمة به، فأرسل رادلكيس (Radelchis) مع جيش خلفون ابنه أورسوس (Ursus) للهجوم على حصن كان (Canne) الّذي يتحصّن به خصمه سيكونولف (Seconolf) ، لكنّ الأخير كان قد أظهر زمام المبادرة للحرب ، واستطاع أن يلحق الهزيمة بجيش خلفون المتحالف مع قوات رادلكيس (Radelchis)، وقتل منهم عددًا كبيرًا، وطال القتل حتى الفارّين من أرض المعركة، وكاد خلفون أن يُقتل بعد أن فقد حصانه وفرّ هاربًا إلى مدينة باري (Bari) حيث كان منهكًا ونجا بأعجوبة من مصيره المحتوم (أماري،2003، 423).

أمام تلك الهزيمة التي مني بها خلفون وجيشه كان لابد أن يعد العدة للردّ على تلك الهزيمة، فقام بإعادة تنظيم جنوده وتسليحهم ، واستطاع أن يلحق الهزيمة بجيش سيكونولف (Seconolf) من خلال شنّ الغارات المتكرّرة على المدن والقرى، ويقومون بعمليات النّهب والحرق حتّى وصل إلى مدينة كابوا (Kapwa) الّتي تقع شمال مدينة نابلي (Napoli) وتسمى في المصادر الإسلامية باسم (قَبْوَة) فقد أشار إليها الإدريسي بقوله " **وقبوة على نهركبيريأتي إليها من جبال في ناحية بنبنت**" (الإدريسي، 2002، ص760).

بذلك استطاع خلفون أن يعزّز من قدراته العسكريّة؛ والاحتفاظ بمدينة باري (Bari) وما جاورها ، ويذكر أماري أنّ المسلمين في باري(Bari) ظلّوا يقومون بعمليّات تخريب المدن لفترة طويلة، وأنّهم استعانوا في ذلك بمرتزقة آخرين؛ لتعزيز نفوذهم وسلطتهم حسب زعمه (أماري، 2003، ص 432)، ويبدو أنّ هذا الوصف يمثل وجهة نظر استشراقيّة لما كان عليه المسلمون، لتصويرهم أنّهم أمّة متوحّشة؛ ولا تحمل في ذهنيّتها حياة الاستقرار وبناء الحضارة، ومن حيث المنطق العلمي لابد لآثار الحروب أن تلقي بظلالها على الواقع؛ خصوصًا أنّ الصّراع لا يهدأ بين المسلمين والبيزنطيّين لأجل السّيطرة على المدن، فكانت إمارة باري(Bari) تكثر من غزواتها على المناطق المجاورة (علي، 1934، ص 261)، ومع تكرار الغارات والحروب من الطبيعي أن تخلّف تلك الحروب آثار الدّمار والخراب.

استمرّ خلفون البربري أميرًا على باري (Bari) فترة من الزمن بلغت تقريبًا على ما يربو عن أربع سنوات، ولم تذكر المصادر والمراجع شيئًا عن مصيره وخاتمته، إذ يكتف الغموض أحواله ونهاية حكمه ، ثمّ جاء بعده مفرّج بن سلاّم؛ أو مفرج بن سالم أو مفرج بن سليمان كما تذكره بعض المراجع ،وكان هذا الأمير قد عاصر عهد الخليفة المتوكل أيضًا (232-247هـ/847-861م) ، وقد أظهر أحد الباحثين شكوكه في أصول مُفرج بن سلاّم فظنّ إبراهيم طرخان أنّ أصوله من أهل جزيرة كريت (طرخان، 1966، 216)، دون أن يدعّم ظنّه هذا بالمعطيات المقنعة، ومن جانب آخر، لم تذكر كتب المصادر الكيفية الّتي وصل بها إلى سدّة الحكم في إمارة باري (Bari)، لكن ميكيلّي أماري (Michele Amari) تفرّد بذكر وصوله إلى السّلطة أنه كان بالمغالبة والاستيلاء (أماري، 2003، ص 432) ولم يوضّح المصدر الّذي اعتمد عليه في ما ذكره عن ذلك.

ويبدو أنّ بداية إمارته في باري (Bari)كان بتاريخ 237هـ-853م، لو أخذنا في الاعتبار فترة إمارة خلفون الّتي اشرنا إليها ، وكان مُفرج بن سلاّم يطمح أن تكون إمارته إمارة تفويض تعترف بها الخلافة العباسية ، لهذا كان قد كتب إلى صاحب البريد في مصر ليعلمه بذلك، وطلب أن يعقد له بالإمارة عليها والاعتراف به أميرًا ،(البلاذري،1987، ص328 - 329)، لكن هذا المطلب تأخّر لمدة سنتين تقريبًا بعد وفاة الخليفة العباسي المتوكّل، وكان الأمير ابن سلاّم يريد أن يقطع الصلة بالأغالبة ويوطّد العلاقة بالخلافة العبّاسيّة للاعتراف به أميرًا (الطالبي،519،1995) ربّما لخلافه مع الأغالبة فأراد أن يؤسّس سلالةً حاكمةً تتوارث الحكم وتكتسب الأرباح التجارية الّتي تميّزت بها مدينة باري (Bari)، وق هيّأ لهذا الأمر فيما يبدو حسن معاملته مع الحجّاج المسيحيّين الّذين كانوا يقصدون بيت المقدس ، حيث حرص على توفير ما يلزمهم لذلك من السّفن النّاقلة؛ وتسهيل مرورهم بالبلدان الّتي يجتازونها، ومن ذلك بلاد مصر(أرشيبالد، د.ت، ص 275).

وقد اتّخذ الأمير مفرج بن سلاّم لنفسه لقب (السّلطان) الّذي لم يعهده المسلمون في ذلك الوقت، كما أعلن انفاصله عن الدّولة الأغلبيّة سنة 239هـ/853م (المدني، د.ت، ص77، 172) واستطاع أن يرسي دعائم إمارته في مدينة باري (Bari)؛ وجعل منها منطلقًا لبسط سيطرته على أماكن أخرى ، ففي بداية إمارته قام بفتح أربعة وعشرين حصنًا؛ ولا يُعرف بالتحديد أسماء تلك الحصون أو أماكنها في المصادر والمراجع المتوفرة، كما قام ببناء المسجد الكبير بالمدينة الّذي يدلّ بناءه على نواة المدينة الإسلامية، فالمسجد الجامع تقام فيه حلقات العلم والدّراسة، وتعقد فيه العقود، وينتشر من خلاله الدعاة للإسلام ،(البلاذري،1987، ص328 - 329) ، والمسجد الجامع هذا تشير بعض المصادر الإيطاليّة إلى أنّ موقعه هو الكاتدرائية الحاليّة للمدينة والّتي تقع وسط مركز المدينة التّاريخي(https://www.sunnafilles.com)، وليس لدينا ما يدعم هذا الظنّ، لكنّ ذلك البناء المذكور الّذي أشار إليه البلاذري يؤكّد أن مفرج بن سلاّم كان قد اهتم بالعمارة الإسلاميّة بالمدينة، ولا نملك من المعلومات الّتي تضيء لنا بعض الجوانب الحضاريّة والعمرانيّة في إمارة باري (Bari) الإسلاميّة، ولأنّ المدينة كانت بعيدة عن طرق الرّحّالة المسلمين فإنّنا لم نجد لها وصفًا حتّى في رحلة الإدريسي الشّهيرة الّتي ركزّت على صقلّيّة (Sicilia) .

من جانب آخر، إنّ شنّ الغارات المتتالية من طرف مفرج بن سلاّم أدّى إلى سقوط الكثير من المدن في يده مثل بوليا (Puglia)، وكلابريا (Calabria)، واسمها العربي قِلّورِيّة، حتّى وصل بجيشه إلى نابولي (Napoli)،

وسالرنو(Salerno)، ثم ولاية بينفينتو(Benevento)، وهذه الأخيرة اضطرّت إلى دفع الجزية للمسلمين ، وأبدى المؤرخ الإيطالي ميكيلّي أماري (Michele Amari) أسفه على حالة إيطاليا في تلك الحقبة الزّمنيّة الّتي كانت فيها إيطاليا منقسمة على نفسها إلى مائة دويلة صغيرة متناحرة فيما بينها، بينما كانت عاجزة على أن تجابه أمير باري (Bari) المسلم وتطره منها (أماري، 2003، 436).

شهد عهد حكم الأمير مفرج بن سلّام مجابهة مع المدن الإيطالية ، وكانت المعارك محتدمة ودامية، لأنّه كان يسعى لتوسيع ملكه بزيادة بسط سلطانه على الأراضي الإيطالية، الّتي كان ملاّكها يعانون من الحروب الأهليّة، والمنافسات السّياسيّة على الزعامة والحكم، وهكذا تهيّأت الأسباب لمفرج بن سلّام لكي يخوض تلك المعارك باقتدار، وبسبب ما تحصّل عليه من غنائم كثيرة أثناء غزواته المتكرّرة، فقد نقم عليه كثير من خصومه، ودبّروا له المكائد، وحاولوا جاهدين أن يقع في قبضتهم ويقضوا عليه، ومن تلك المحاولات أن استدعى رئيس دير مونتي كاسينو(Montecassino) الإمبراطور لودوفيكو(Ludovico) للقيام بطرد المسلمين من مدينة باري (Bari)، وبالتّالي القضاء على مفرج بن سلّام، وقد حشد قوات كبيرة لتحقيق ذلك، لكنّه هُزم في تلك المواجهة أمام ضربات المسلمين الموجعة، الّتي أجبرته إلى أن يندحر إلى ما وراء جبال الألب سنة 239هـ/ 853م، (أماري، 2003، ص 433).

أمّا نهاية إمارة مفرج بن سلّام فكانت غامضة، ولم تفصح لنا المصادر عنها شيئا سوى الإشارة إلى غدر أصحابه به وقتله (البلاذري، 1987، ص329) ولا يُعرف لماذا قتل غيلة ودوافع ذلك، وتلك الإشارة القصيرة تلقّفتها المراجع الحديثة عند الحديث عن هذا الأمير، إنّ هذا القصور الكبير في التّدوين التّاريخي لمثل تلك الحوادث سواء عن قصد أو عن غير قصد تجعل الباحث يتوقف عن إيجاد تفسير منطقي لذلك.

بقي أن نعرف تاريخ نهاية فترة حكم مفرج بن سلّام لهذه الإمارة، فمن الصعوبة تحديد دقيق لتلك الفترة ، لأن المصادر لم تشر إلى ذلك ، لكن تناقل بعض الباحثين نهاية إمارة مفرج بن سلام بتاريخ 241هـ/856 م (https://www.msf-online.com/) وربّما هذا التّاريخ دوّنه المستشرقون الإيطاليّون الّذين اهتموا بتاريخ تلك المرحلة من العصر الوسيط في إيطاليا.

في مرحلة لاحقة، بدأ عهد الأمير سودان الماوري الّذي تقلّد حكم إمارة باري (Bari) إثر مقتل الأمير مفرج بن سلّام، وقد ورد ذكره في كتاب فتوح البلدان باسم (سوران) ولعلّ ذلك جاء سهوًا من النّاسخ فصحّح المحقّق هذا السهو وأكّد على أنّ اسمه الصحيح هو (سودان) ،(البلاذري،1987، ص 329)، ومما يشدّ الانتباه أن ميخائيل أماري لم يشر إلى ذكر سودان الماوري في متن كتابه الشهير المسمى (المكتبة العربيّة الصقليّة) رغم أنه نقل عن المصادر العربية في صفحات الكتاب الأولى ما يفيد أن سودان الماوري يعدّ ثالث أمراء مدينة باري، لكن أماري يبدو أنه قد وقع في سهوٍ عندما تحدث عن إمارة باري الإسلامية فحصر عهدها في أميرين فقط هما خلفون البربري ومفرج بن سلاّم أو كما أورده أماري في كتابه المذكور المفرج بن سالم (أماري، 1857،ص2، 339) .

أما عن أصوله فقد ذكر إبراهيم طرخان على سبيل الظّنّ وليس اليقين أنّه يرجع إلى جزيرة كريت ، مثلما تحدث عن ألأمير مفرج بن سلّام الّذي أشرنا إليه قبل قليل، (طرخان، 1966، 216)، ولا يمكن قبول هذا الرّأي بشكل جازم؛ وقطع صلة مفرج بن سلّام وسودان الماوري بالأغالبة، لأنّ هذه الأحداث الّتي نستعرضها في هذا البحث تأتي في سياق امتداد دولة الأغالبة في صقلّيّة وجنوب إيطاليا، لكنّ إبراهيم طرخان علّل طلب انفصالهما عن الأغالبة لأنهما لا ينتميان لهم من حيث الأصول والولاء السّياسي، وهذه مغالطة تاريخيّة في تقديري، لأنّ الدّولة الأغلبيّة حكمت باسم العبّاسيّين في المغرب الأدنى نتيجة للتّنافس السّياسي في تلك المرحلة لتكون ندًّا للدّولة الرّستميّة في المغرب الأوسط وحاجزًا يبعد خطر الأخيرة عن التّمدّد شرقًا نحو القاهرة باعتبارها تحت نفوذ الدّولة العبّاسيّة.

كان الأمير سودان الماوري قد سعى من بداية عهد إمارته بالانفصال عن الدّولة الأغلبيّة بالمغرب الأدنى؛ أملاً منه في تكوين كيان جديد يتبع الخلافة العباسيّة بشكل مباشر على غرار دولة الأغالبة، لتكون له الزّعامة في جنوب إيطاليا؛ دون هيمنة أمراء الدّولة الأغلبية عليه، كما كان يطمح في هذا الانفصال على ما يبدو تحقيق الأرباح التّجارية الّتي سيجنيها من التّجارة البحريّة ، ويحتكر الأموال الّتي تزخر بها إمارة باري (Bari) بعد أن يدفع الجزء اليسير منها إلى الخلافة العبّاسيّة، لذلك ؛ أورد البلاذري طلب سودان الماوري من الخليفة العبّاسي بعد أن أشار إلى مقتل مفرج من سلاّم فقال: " .... **فقام بعده سودان ، فوجه رسوله إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدًا وكتاب ولاية، فتوفّي قبل أن ينصرف رسوله إليه، وتوفّي المنتصر بالله، وكانت خلافته ستة أشهر، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله، فأمر عامله على المغرب، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحيته، فلم يشخص رسوله من سرّ من رأى حتى قتل أوتامش وولّى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له و أنفذه**"،(البلاذري،1987، ص 329)،

من الواضح في النّص السّابق أنّ سودان الماوري كان قد أرسل رسوله إلى الخليفة المتوكّل على الله العبّاسي لكي يتحصّل على الاعتراف به أميرًا أو واليًا ولاية تفويض، ولكن يبدو أنّه تأخّر عن ذلك الأمر، لأنّ سودان الماوري تولّى الإمارة عام 241هـ/ 856م، ولم يقم بإرسال رسوله حتّى توفّي المتوكّل سنة 247هـ/861م، وتبعه بعد ذلك الخليفة المنتصر بالله الّذي مات مريضًا ولم تدم خلافته سوى ستة اشهر حيث كانت وفاته بتاريخ 248هـ/862م، وربما كان ذلك التّأخير نتيجة الأوضاع السّياسيّة الّتي تعيشها الإمارة في تلك المرحلة.

وفي عهد الخليفة المستعين بالله 248-252هـ/262-866 م، وصل رسول سودان الماوري إلى مقرّ الخلافة العبّاسيّة، وأحال أمر ولايته إلى وزيره التركي أوتامش الّذي كان يتمتّع بصلاحياتٍ واسعةٍ في سياسة الدّولة؛ وهو المسيطر على خزائنها وأموالها، فأثار ذلك حفيظة الموالي؛ فثاروا عليه وقتلوه، فكان أن تأخر كتاب الخليفة العباسي إلى سودان الماوري حتى تقلّد أحد الموالي منصبًا رفيعًا في الدّولة العبّاسية وهو المسمّى (وصيف) الّذي كان يتقاسم السلطة مع (بُغا) في البلاط العبّاسي حتى لُقّبا بالأميرين(الخضري ، 2003، ص 256-264). فكتب وصيف لسودان الماوري بالإمارة على باري(Bari)، وتم تنفيذ ذلك، وهكذا ، فإنّ سودان الماوري لم يحقّق مطمحه هذا في الاستقلال بالإمارة حتى انقضى وقت طويل تجاوز خمس سنوات ليحصل على كتاب من الخليفة العبّاسي ، وهو أكثر من منتصف عهد إمارته التي انتهت سنة 257هـ/871م(https://www.msf-online.com/).

تعدّ إمارة سودان الماوري في مدينة باري (Bari)هي الأطول فترة مقارنة بإمارة كلٍّ من مفرج بن سلاّم وقبله خلفون البربري، ويبدو أن أحد الكتّاب قد اطّلع على مصادر أجنبية كافية ليكتب رواية أدبية تحمل عنوان (باري : أنشودة سوان) وهي للكاتب إبراهيم أحمد عيسى وتقع هذه الرّواية في

(527صفحة)،وقد حازت على جائزة (كتارا) للرواية العربية عام 2018م، وطُبعت بالقاهرة ونشرت عبر دار تبارك للنّشر والتّوزيع لعام 2019، لكنّ المدهش أنّ المصادر العربيّة لم تذكر شيئا مفصّلًا عن سودان الماوري، فالمعلومات شحيحة وقليلة عن حياته ودوره السّياسي في تلك المرحلة التّاريخيّة.

وهناك بعض المراجع التّاريخية العربيّة الّتي استندت إلى الكتابات الأجنبيّة، قد تحدّثت بعض الشّيء عن الدّور العسكري والسّياسي الّذي قام به سودان الماوري في تلك الحقبة التّاريخيّة، فقد تحدّث الطّالبي عن قوّة سودان الماوري العسكريّة، ودورها في التّوسع والاستيلاء على الأراضي الّتي تقع في الجنوب الإيطالي، ففي عام 245هـ/859م استطاع سودان الماوري أن يفرض سيطرته على مدينة بينفينتو(Benevento) التي كانت تعاني من انقسام داخلي، وتقع تلك المدينة ضمن إقليم كامبانيا (Campania) بجنوب إيطاليا، وأجبرها على دفع الجزية وتسليم ما لديها من رهائن له (الطالبي،1995، 519)، وقد شجّع ذلك الانتصار المسلمين على القيام بغزو مدينة روما بعد ما أصبح الجنوب الإيطالي في تلك الفترة تحت نفوذ المسلمين، لذلك ؛ كانت تلك الغزوة الّتي توجهّت إلى روما سنة 256هـ/870م ، تضمّ عددًا كبيرًا فيما يبدو من الجنود المسلمين الّذين جاءوا من الأندلس، وآخرين جاءوا من إفريقيّة، وشكّلوا بذلك حلفًا قويًّا حتّى تمكّنوا من الوصول إلى ضواحي روما، وأمام تلك القوّة الكبيرة اضطّر البابا حنّا الثامن(Anna VIII) إلى مفاوضة الجيش الإسلامي من أجل عقد صلح معهم ، فأفضت تلك المفاوضات على موافقة المسلمين للجلاء من الأراضي الإيطاليّة القريبة من روما مقابل أن تدفع روما جزيةً سنويةً مقدارها مائة ألف مثقال من الذهب (طرخان، 1966، ص217).

إن المدّة الزّمنيّة الّتي قضاها سودان الماوري في حكم إمارة باري (Bari)تعدّ الأطول إذا ما قارنّاها بعهد كلٍّ من الأميرين السّابقين، وكانت كافيةً فيما يبدو لتوطيد أركان إمارته، ورسم سياسةٍ داخليّةٍ وخارجيةٍ لتلك الإمارة، ومع مدّ نفوذه على أراضٍ واسعةٍ من الجنوب الإيطالي ، وطموحه لأكثر من ذلك، كانت بيزنطة تخشى عواقب ذلك ، ومصالحها في البحر المتوسّط، أما إيطاليا فكانت منقسمة على نفسها في صراعات داخليّة؛ ولم تتمكّن من التّغلّب على تلك المشاكل لتواجه سودان الماوري، لكنّ التّحالف الّذي نشأ بين الإمبراطور البيزنطي باسيل الأول (Basilio I) والإمبراطور الإيطالي لويس الثّاني (Luigi II) كان كفيلاً بنهاية سودان الماوري سنة 257هـ/871م وسقوط إمارة باري (Bari) الّتي بقيت فترة من الزّمن في الجنوب الإيطالي لمدة خمس وعشرين عامًا تقريبًا.

4. سقوط إمارة باري (Bari)

بالعودة إلى الأحداث الّتي سبقت سقوط باري (Bari) في يد البيزنطيّين ، فإنّ المنطقة كانت تعجّ بالصّراعات المحلّيّة بين المتنافسين على السّلطة في إيطاليا عمومًا وعلى وجه الخصوص إقليم بينفينتو (Benevento) في الجنوب الإيطالي بين اللومبارديين ، وكانت الحرب الأهليّة على أشدّها والّتي استمرّت لمدة عقد من الزّمن (225هـ/839م- 235هـ/849م)، وانتهى الصّراع بانقسام إمارة بينفينتو (Benevento) إلى قسمين،(Jules,1904, 63) بحيث أصبحت إمارة بينفينتو (Benevento) تشمل الجزء الشرقي من جنوب إيطاليا بما في ذلك إمارة باري (Bari) الّتي يسيطر عليها المسلمون، أمّا إمارة سالرنو (Salerno) فإنها تشمل الجزء الغربي من الجنوب الإيطالي، (انظر إلى شكل : 3).

شكل 3: موقع إمارة بنيفينتو وسالرنو (https://www.marefa.org/)

وبالرّغم من ذلك؛ لم ينعم الجنوب الإيطالي بالسّلام والاستقرار، بل عمّق أزمة الانقسام، بحيث انفصلت بعض المدن الأخرى في الجنوب الإيطالي مثل مدينة قبوة (Kapwa) عن إمارة سالرنو (Salerno)، لكن أسقف المدينة لاندولف (Landolf) استطاع بعد حين أن يفرض سيطرته عليها عام 249هـ/863م، (Berto, 2018, p44) ، كما دبّ النزاع بين مدينة قبوة (Kapwa) ومدينة نابولي (Napoli) ومدينة قبوة (Kapwa) ضد مدينة سالرنو (Salerno) ، وسكان مدينة قبوة (Kapwa) ضدّ بعضهم البعض، فضلاً عن النّزاع الّذي كان بين أمير قبوة (Kapwa) وأبناء شقيقته (أماري، 2003، ص 433).

في غضون ذلك، وعند ازدياد غزوات المسلمين على الجنوب الإيطالي، وأخذهم الغنائم الكثيرة، بدت نداءات كثيرة من السّكّان لأجل التغلّب على المسلمين وطردهم من تلك الأنحاء، فاستجاب لذلك الإمبراطور (لويس الثّاني (Luigi II) سنة 252هـ/866م ليوجه حملةً عسكريّةً ضدّ مدينة باري (Bari) معقل المسلمين وقاعدة انطلاق غزواتهم في الجنوب الإيطالي، وكانت تلك الحملة قد شاركت فيها قوّة كبيرة من الفرنجة ,واللّومبارديّين في جنوب إيطاليا ، وحلفاء آخرين من الأمم الأخرى (Erchempert,2022, p107) .

سار ذلك الحشد الكبير من الجيش نحو مدينة باري (Bari)؛ لكنّ تلك الحملة - رغم كثرة عددها وعتادها - لم تتمكّن من هزيمة جيش المسلمين الّذي يقوده الأمير سودان الماوري، وذلك لبعض الأسباب أوّلها أنّ المسلمين اتّبعوا خططًا حربيّةً تعتمد على نظام المجموعات الصّغيرة الّتي تباغت قوات العدوّ ، وتختار الوقت المناسب لذلك، أمّا السّبب الثّاني فإنّ تفشي الأوبئة والأمراض بين جيش لويس الثّاني (Luigi II) قد نتج عنه نقصًا في عدد الجنود، كما أن عقر العناكب الّتي أصيب بها الجيش يعدّ سببًا ثالثًا بحسب رواية أحد الرهبان إن صحت تلك الرّواية، الأمر الّذي اضطرّ على إثره لويس الثّاني (Luigi II) إلى الانسحاب من أرض المعركة إلى أن وصل إلى بينفينتو(Benevento) وذلك سنة 253هـ/867م ، (أماري، 2003، ص 437).

جذير بالذّكر أنّ لويس الثّاني (Luigi II) في تلك الأثناء لم يستطع أن يحدّ من تحرّكات الأسطول الإسلامي في البحر الأدرياتي (Mare Adriatico) وبالتّالي فإنّ مدينة باري (Bari) لم يتمكّن من حصارها، بل تمكّن الأسطول الإسلامي من القيام بمحاصرة مدينة رغوس (Ragus) على ساحل دلماشيا (Dalmazia) وهذه الأخيرة منطقة تقع على الساحل الشرقي من البحر الأدرياتي (Mare Adriatico) ومعظم أراضيها ضمن امتداد إقليم كرواتيا، حيث تمّ حصارها لمدة خمسة عشر شهرًا، وفضلاً عن ذلك ؛كان هناك تواجد للمسلمين في مقاطعة بولية (Puglia) وهي منطقة في جنوب شرق إيطاليا؛ وتحدّ بمقاطعة باري (Bari) ،وأمام تلك القوّة الّتي أظهرها سودان الماوري لم يعد أمام لويس

الثّاني (Luigi II) إلّا أن يشكّل تحالفًا بينه وبين الإمبراطور البيزنطي باسيل الأوّل (Basilio I) حيث اجتمعت مصلحتهما في القيام بعمل عسكري مشترك ضدّ التواجد الإسلامي في جنوب إيطاليا ، فأبرمت معاهدة بين الطرفين حوالي سنة 254هـ/868م، أرسل على إثرها الإمبراطور البيزنطي في العام التالي أسطولاً مكوّنًا من أربعمائة مركب لمساعدة لويس الثّاني (Luigi II) في حصار مدينة باري (Bari) إلاّ أنّ ذلك الحصار قد باء بالفشل (عزيز،1980، ص 27)، لكنّ إصرار ذلك التحالف على إلحاق الهزيمة بإمارة باري (Bari) جعل بعض المدن تقدّم الدّعم العسكري للمتحالفين من المدن الأخرى، منها مدن ساحل دلماشيا (Dalmazia)، ومدينة البندقيّة(Venezia)، ويبدو أنّ خطّة حصار باري (Bari) كانت محكمة من حيث أنّها جعلت ذلك الحصار يشمل حدود المدينة من البحر والبرّ، ففي حين كانت البندقية (Venezia) ومدن السّاحل تحاصر بأساطيلها المدينة من البحر، فإنّ لويس الثّاني (Luigi II) تمكّن من مهاجمة مدينة باري (Bari) من البرّ، بعد حصارٍ دام حوالي أربع سنوات، وسقطت إمارة باري (Bari) على إثر ذلك الحصار في سنة 257هـ الموافق للثّاني من فبراير871م، بعد ما دامت من الزّمن مدّة خمس وعشرين سنة، وأُسر أميرها سودان الماوري، الّذي كان متحصّنًا في أحد أبراجها، بعد استسلامه لأمير بينفينتو(Benevento) الّذي كان مدينًا له بالفضل، لأنّ ابنة الأخير كانت رهينة في يد سودان الماوري؛ وحافظ عليها ؛ وحفّها بالرّعاية والحماية والكرامة، وعاملها كأنّها ابنته (أماري، 2003، ص 441) ، أمّا من تبقى من المسلمين المحاصرين في مدينة باري(Bari) فقد تعرّضوا لمذبحة مروّعة على يد لويس الثّاني (Luigi II) ولم يتبقى أحد من المسلمين فيها (Riche,1993, p180-182) ، وهكذا فإنّ حملة لويس الثّاني (Luigi II) وحليفه باسيل الأوّل (Basilio I) ضدّ إمارة باري (Bari) كانت قد أفشلت محاولات المسلمين في الاستيلاء على مناطق جديدة في جنوب إيطاليا، بل إنّ سقوط باري(Bari) شكّل بداية لاستعادة لويس الثّاني (Luigi II) الكثير من الأراضي والمدن التي كانت بيد المسلمين ، حيث استطاع محاصرة تارانتو (Taranto) وقلاع المسلمين في كلابريا (Calabria)، وأرسل قوّةً عسكريّةً إلى نابولي (Napoli)، وكانت خطّته تلك ترمي فيما يبدو إلى السّيطرة على الجنوب الإيطالي؛ ومن ثمّ الوصول إلى صقليّة (Sicilia) (أماري، 2003، ص 441).

وهكذا فإنّ سقوط مدينة باري(Bari) كان سقوطًا له تداعياته حين فقد المسلمون موقعًا مهمًّا في الجنوب الإيطالي، فقد كانت قاعدةً متقدّمة في شمال البحر المتوسّط عوّل المسلمون من خلالها على غزو جميع مقاطعات إيطاليا وفتحها بما في ذلك روما، كما كان سقوط إمارة باري (Bari)نتيجة سياسة سودان الماوري مع الأغالبة حيث قطع الصلة بهم واستقلّ بحكمها، لذلك لم يقوموا بنجدته؛ بل تركوه وحده في مجابهة تحالف الإمبراطور البيزنطي باسيل الأول (Basilio I) والإمبراطور الإيطالي لويس الثّاني (Luigi II) ، حتى سقطت إمارته، بعد ذلك قام الأمير الأغلبي أبو الغرانيق بتعيين أحمد بن يعقوب واليًا على صقليّة (Sicilia)، في حين ولّى أخاه عبد الله بن يعقوب على ممتلكات المسلمين في جنوب إيطاليا، وقد حاول الأخير استرداد المناطق الّتي فقدها المسلمون بعد سقوط باري (Bari)إلاّ أنّه فشل في ذلك (عزيز، 1980، ص 28).

بقي أن نتعرّف على الأثر الحضاري لإمارة باري (Bari) الإسلاميّة، فهل هناك شواهد أثريّة تبيّن ذلك؟ أو ذكر لمعالم حضارتها في كتب المصادر؟ في الواقع إنّ المصادر لم تسجّل لنا شيئًا عن الحياة الحضاريّة للإمارة، ولا توجد آثار باقية من ذلك العصر يمكن من خلالها معرفة جانب معيّن من حضارة باري (Bari)، وحتى الإشارة العابرة الّتي ذكرها البلاذري عن جامع باري والحصون التي افتتحها المسلمون أصبحت خبرًا بدون أثر باقٍ ، فقد اندثر ذلك المسجد الجامع كما اندثرت تلك الحصون حول المدينة، لكنّ ذلك يوحي إلى أنّ الإمارة كانت لديها عمائر عسكرية تمثلت في تلك الحصون الّتي كانت من عوامل قوّة الجيش الإسلامي الّذي قام بحماية المدينة من غارات البيزنطيّين المتكرّرة، وصمدت المدينة طوال فترة بقائها أمام تلك الغارات ولم يكتب لها السّقوط في فترة قصيرة بفضل تلك التحصينات، أما المسجد الجامع الّذي أشار إليه البلاذري ، والّذي اندثر هو الآخر فإنّه يمثل معلمًا حضاريًّا لتلك المدينة، ومن عادة المسلمين أن يكون إنشاء المسجد الجامع وسط المدينة وليس في أطرافها.

من جانب آخر، فإنّ الغموض يكتنف الحياة العلميّة والفكريّة عن تلك المدينة ، وربما يرجع السّبب في ذلك - كما يذكر محمد كرد علي في كتابه الإسلام والحضارة العربية أنه- " **لم يخلّف المسلمون شيئًا في تلك الأرجاء من آثار علمهم وصنائعهم كما كان منهم في جزيرة صقلّيّة لأن مقامهم فيها لم يطل**" (علي، 1934، ص261)، ويبدو أنّ ما أشار إليه محمد كرد علي استنتاج منطقي ، لأن إمارة باري(Bari) بقيت فترة قصيرة من عمر الزّمن إلى حدٍّ ما، وفضلاً عن ذلك؛ لم تنعم بالاستقرار الّذي يمكّنها من الاهتمام بالجوانب العلميّة والصّنائع المختلفة، فكانت طيلة مدة بقائها في حالة من الغزوات المتكرّرة الّتي تنطلق منها، أو في حالةٍ من الدّفاع والتّرقّب لغارات المدن الإيطاليّة المجاورة لها، والّتي بالطّبع لم تكن في حالة وفاق معها.

أما النّظام الإداري للإمارة- وإن كان لم تصرّح به المصادر بشكل واضح- إلاّ أنّه يمكن أن نستشفّ بعض ملامح إدارة الإمارة من الإشارات العابرة الّتي ذُكرت في بعض المصادر والمراجع، وبالنّظر إلى ذلك، فإنّ الأمير هو رأس هرم السّلطة السّياسيّة، كما أنّ حكم الإمارة لم يكن حكمًا وراثيًّا بحسب المعطيات الّتي بين أيدينا، فالأمير الأوّل خلفون البربري، هو من إحدى قبائل البربر المنتشرة في شمال أفريقيا والأندلس، وهو من موالي بني ربيعة بحسب رواية البلاذري (البلاذري،1987، ص 328)، أمّا الأمير الثّاني مفرج بن سلاّم والأمير الثّالث سودان الماوري فكلاهما قدما من جزيرة كريت بحسب ظنّ إبراهيم طرخان (طرخان، 1966، 216)، كما أنّ الوصول إلى منصب الإمارة كان بأسلوب الاستيلاء والمغالبة كما أشرنا إلى ذلك في الصفحات الفائتة، إذًا لم يكن منصب الإمارة وراثيًّا ، ولم تؤسس سلالة حاكمة تتوارث الحكم كما هو مألوف عند المسلمين منذ بداية العصر الأموي(41-132هـ/661-750م).

ومن الجذير بالملاحظة أيضًا أنّ الأمير في باري (Bari) كان يتقلّد قيادة الجيش بنفسه، فلا وجود لذكر منصب قيادة الجيش لشخصيات أخرى غير الأمير بحسب المعطيات الّتي بين أيدينا، وعلى ذلك بقيت قيادة الجيش يحتكرها الأمير لنفسه حتى سقوط الإمارة ، ولا نعرف تفصيلات عن نظام الجيش وتقسيماته، أمّا أنواع أسلحته فربّما كانت السّيوف والرّماح، والنّوع الأخير قد أشار إليه محمّد الطّالبي في معرض حديثة عن غزو مدينة باري (Bari) من قبل خلفون البربري، حيث ذكر أنّ جيشه كان يستخدم رماحًا خفيفةً، وكانت قناتها من أعواد القصب (الطّالبي، 1995، ص 119) وكانت فنون القتال تعتمد فيما يبدو على نظام الحصون، وحصار العدوّ، والقتال بشكل مجموعات صغيرة مسلّحة لمباغتة العدوّ والإيقاع به (أماري، 2003،

ص 437).

من جانب آخر، فإنّنا لا نستطيع رسم صورة ولو تقريبيّة عن النّشاط الاقتصادي في تلك المرحلة من تاريخ إمارة باري (Bari) وإن كانت قد وُصفت في إشارات عابرة بأنّها مدينة عامرة ، وبها دار لصناعة السّفن (الإدريسي، 2002 ، ص 763) وتحيط بها الأراضي الخصبة، وخزائنها امتلأت بأموال الغنائم ، رغم ذلك كلّه فإنّ نمط النّشاط الاقتصادي يظلّ غير واضح وذلك لعدّة أسباب، كان أوّلها: أنّ المصادر والمراجع لم تتحدّث عن اقتصاد إمارة باري(Bari) بشكل مفصّل لأنّ الاهتمام انصبّ على ذكر تاريخ صقلّيّة (Sicilia) في تلك الفترة التّاريخيّة، والّتي شهدت ازدهارًا اقتصاديًّا وحضاريًّا، وثانيها: أنّ أخبار الصّراع السّياسي والعسكري المتعلّق بمدينة باري (Bari) قد أخذ حيزًا كبيرًا من الاهتمام بين المؤرّخين المتقدمين منهم والمتأخّرين، وثالثها: أنّ مدينة باري (Bari) لم تنعم بالاستقرار لفترة طويلة لتظهر لنا ملامح نشاطها الاقتصادي في تلك المرحلة، ومع ذلك لا يمكن أن ننفي أن هناك بعض النّشاط الاقتصادي وإن كان ضئيلاً فيما يبدو، لأن علاقة التّبعيّة الّتي انتهجتها إمارة باري(Bari) مع الخلافة العبّاسيّة المباشرة وقطع الصّلة مع إمارة الأغالبة في إفريقيّة حرمها من تجارة جنوب المتوسط وموانئه، وفي الوقت ذاته لا تستطيع إمارة باري(Bari) مدّ جسور العلاقات الاقتصاديّة مع المشرق الإسلامي نظرًا لوجود بيزنطة الّتي تسيطر على بحر الدردنيل وما حوله، وفضلاً عن ذلك ؛ فإنّ ضعف النّشاط الاقتصادي بسواحل المتوسّط في تلك الفترة قد علّله الدّكتور محمود أبو صوّة إلى علاقة التّبعيّة الّتي تستند إلى قوى إقليميّة فالحيّز الجغرافي في شمال المتوسط يرتبط سكانه بعلاقات التكامل والتّعاون،(أبو صوّة، 2000، ص86)، وبما أنّ إمارة باري (Bari) قد انقطعت صلتهم وتبعيتهم بالأغالبة إبّان عهد الأمير الثّاني والثّالث فيما يبدو، نتج عنه ضعف سكّان الإمارة وعدم اقتدارهم حتّ على حماية أنفسهم ، فكيف يمكن لهم أن يدخلوا مجال المنافسة الاقتصاديّة في حوض البحر المتوسّط.

من ناحية أخرى لاحظ الدّكتور محمود أبو صوّة أنّ سواحل المتوسّط لم يكن مؤهلاً عبر العصور بأن يكون له الدّور الرئيس في الحياة السّياسيّة لأنه كان امتدادًا لنفوذ الدّول المتحكّمة والمتصارعة، فهو إذًا يخضع لتبعيّة الأقوى، ولا يعوّل على سكّانه الّذين يعتبرون قلّة عدديّة ولا على موارده الاقتصاديّة المتحكّم فيها، كما أنّ جزر البحر المتوسط كانت مناطق حاجزة تحمي مراكز ضفافه الجنوبيّة أو الشّمالية الواقعة في نطاقها تلك الجزر، ويعتقد الدّكتور محمود أبو صوّة أنّ "**كيانات منطقة السّاحل لم تعمّر كثيرًا إذ أنّها كانت وعلى الدّوام عرضة لضغوطات شعوب المناطق الداخليّة ولهجماتها**" ،(أبو صوّة، 2000، ص86-87) ، إنّ هذا التّصوّر أو الاعتقاد عن الكيانات السّياسيّة - الّتي تكوّنت في شكل دويلات أو إمارات صغيرة على ساحل المتوسط جنوبه أو شماله خلال العصر الوسيط - له ما يؤيّده من الشّواهد التّاريخية، والمثال على ذلك إمارة باري(Bari) الإسلاميّة في شمال المتوسط (232-257هـ/ 847-871م) وقد دامت خمسًا وعشرين سنة، وإمارة بينفينتو(Benevento) (228-233هـ / 842-847م) وهي في شمال المتوسط أيضًا، وقد بقي المسلمون فيها مدّة خمس سنوات (مؤنس،1993، ص 112)، فكلتا الإمارتين تعرّضتا لضغوط الظّروف المحيطة بهما، وإن كانت الإمارة الأولى قد بقيت خمسًا وعشرين سنة فإنّ تلك الفترة في عمر الدّول والإمارات تعدّ قليلة، لذلك فلا عجب أن لا يكون لدى إمارة باري(Bari) رصيد حضاري؛ أو نشاط اقتصادي ملموس يحدّثنا عنه تاريخ نظرًا لظروف تلك المرحلة وواقعها السّياسي الّذي كان له أثر سلبي على الحياة الاقتصاديّة والحضاريّة.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث تبيّن لنا أنّ مدينة بارة أو باري كما تسمّى في المصادر قد حظيت باهتمام القوى المتنافسة في البحر المتوسّط، فموقعها المهم الّذي يشرف على البحر الأدرياتي جعل الصّراع بين القوى البحريّة محتدمًا؛ خصوصًا وأنّ المسلمين كانوا خلال القرن الثّالث الهجري قد تمكّنوا من بناء أسطولٍ بحريٍّ قويٍّ ، منحهم الثّقة في فرض سيادتهم على البحر المتوسّط وجزره وسواحله المحيطة به، لإبعاد قوّة البيزنطيين المنافسة لهم، والحصول على مكاسب حركة التّوسّع الّتي خطّط لها المسلمون بعد أن تمكّنوا من غزو صقلّيّة وفتحها.

إنّ غزو مدينة باري كان نقطة ارتكاز أساسيّة لمحاولة ضم الجنوب الإيطالي بأكمله في الحظيرة الإسلاميّة، والوصول إلى عمق إيطاليا لتكون موطنًا ومستقرًّا للمسلمين كما حصل في بلاد الأندلس، لكنّ الخلاف والتّنافر السّياسي بين المسلمين كان سببًا في تأخير فتح صقلّيّة لفترة طويلة، إذ لو كان التّكامل والوفاق بين المسلمين قائمًا حينئذٍ لما تأخّر فتح صقلّية بعد غزوها أوّل مرّة عام 212هـ/ 827م، وبالتّالي لأمكن لهم تحقيق التوسّع على ساحل باري وجنوب إيطاليا منذ ذلك الوقت.

إنّ غزو مدينة باري من طرف المسلمين قد فتح باب الصّراع بينهم وبين خصومهم في البحر المتوسّط ليس من منظور الصراع السياسي فحسب ؛ بل من جانب الصّراع الاقتصادي المتمثّل في التّجارة البحريّة التي احتكرها البيزنطيون لا سيّما تجارة الشّرق الّتي كانت رائجة بين البيزنطيين وحلفائهم في البحر المتوسط قبل ظهور المسلمين قوّة بحريّة منافسة لهم، وربّما كان أمراء باري قد عوّلوا على ذلك وخططوا له من خلال تبعيّتهم للخلافة العبّاسيّة في المشرق، أملاً بأن تكون تلك التّبعية لفتح أفق ساسي واقتصادي وحرمان الأغالبة في إفريقية من ذلك بقطع الصّلة بهم.

وأمام النّجاحات الّتي تحقّقت لإمارة باري في التّوسّع لضمّ مدن الجنوب الإيطالي خصوصًا في عهد الأمير مفرج بن سلاّم والأمير سودان الماوري، إلاّ أنّ تلك النّجاحات قد أثارت حفيظة البيزنطيين ومن تحالف معهم فاجتمعت الجيوش المتحالفة ضد باري ومشروعها التوسعي فسقطت تلك الإمارة التي كانت وحيدة لا حليف لها بعد أن دامت خمسًا وعشرين سنة، ولا يمكننا التكهّن بأثرها الحضاري والثقافي أو مدى إسهامها في أسلمة المنطقة الّتي سيطرت عليها خلال تلك الفترة من هذه الإمارة المنسيّة والّتي حاولنا بقدر المستطاع تسليط بعض الضوء على ملامح من تاريخها المفقود.

فهرس مصادرومراجع البحث:

1. الكتب

[1] ابن الأثير، عزالدين.1997. الكامل في التاريخ، ج4، دار الكتاب العربي-بيروت.

[2] أرسلان ، شكيب. د.ت .تاريخ غزوات العرب، دار الكتب العلمية-بيروت.

[3] أماري، ميخائيل.1857. المكتبة العربية الصقلية : نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، مكتبة المثنى – بغداد.

[4] البغدادي، صفي الين. 1992. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة

والبقاع، ط1، دار الجيل – بيروت.

[5] البكري، أبو عبيد. 2002. المسالك والممالك، ط1،ج2، دار الكتب العلمية- بيروت.

[6] البلاذري، أحمد بن يحيى. 1987.فتوح البلدان، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر- بيروت.

[7] أبو الدهب، أشرف. 2002. ط1، دار الشروق- القاهرة.

[8] الدوري، تقي الدين.1980. صقليّة: علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ، دار الرشيد للنشر- وزارة الثقافة والإعلام –العراق.

[9] سالم، السيد عبدالعزيز والعبادي، أحمد مختار.1969.تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية- بيروت.

[10] ابن سباهي، محمد بن علي. 2006.أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، ط1، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

[11] السّعيد، خالد. 2015. تاريخ بلا أصباغ، ط1، دار الفارابي- بيرت.

[12] ابن سيد الناس اليعمري، محمد .د.ت. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج1، دار ابن كثير- دمشق/ بيروت.

[13] الشّريف الإدريسي، أبو عبدالله محمد. 2002. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

[14] أبو صوّة، محمود.2000. دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، منشرات ELGA- فاليتا –مالطا.

[15] الطّبري، أبوجعفر محمد. د.ت. تاريخ الرسل والملوك،ج4،ط2، دار المعارف-القاهرة.

[16] طرخان، إبراهيم. 1966. المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب- القاهرة.

[17]عباس،إحسان.1975.العرب في صقلية: دراسة في التاريخ والأدب،ط2،ار الثقافة- بيروت.

[18] ابن عبد البر، يوسف. د.ت. الدرر في اختصار المغازي والسير، ط2، دار المعارف- القاهرة.

[19] ابن عذاري، أحمد. 1983. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ط3، دار الثقافة-بيروت.

[20] العريني، السيد الباز.1982. الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية- بيروت.

[21] علي، محمد كرد. 1934. الإسلام والحضارة العربية،ج1، دار الكتب العربية- القاهرة.

[22] العمري، عبد العزيز.1421. الفتوح الإسلامية عبر العصور، ط3، دار إشبيليا للنشر والتوزيع- الرياض.

[23] الكتاني، علي. 2005. المسلمون في أوروبا وأمريكا، ط1، دار الكتب العلمية- بيروت.

[24] المدني، أحمد توفيق .د.ت. المسلمون في جزيرة صقليّة وجنوب إيطاليا، مكتبة الاستقامة- تونس.

[25] ابن منظور، جمال الدين. د.ت. م15، دار صادر-بيروت.

[26]مؤنس، حسين.1993. تاريخ المسلمين في البحر المتوسط: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر- القاهرة.

[27]هارون، عبدالسلام.1985. تهذيب سيرة ابن هشام، ط14، مؤسسة الرسالة- بيروت.

[27]ياقوت الحموي، شهاب الدين. 1977. معجم البلدان، م1، دار صادر- بيروت.

2. الترجمة

[28]أحمد ، عزيز. ترجمة: الطيبي، أمين. 1980م. تاريخ صقلية الإسلامية. الدار العربية للكتاب-بيروت.

[29]أرشيبالد، لويس. ترجمة: عيسى، أحمد. د.ت. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط 500-1100م. مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.

[30]أماري، مايكيلي. ترجمة: محمد ، سعد إبراهيم وآخرون.2003. تاريخ مسلمي صقلية، م1، مطبعة فلورنسا- لو مونتييه.

[31]برادفورد، إرنل. ترجمة: التليسي، خليفة محمد.2008. البحر المتوسط حضاراته وصراعاته، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام- طرابلس.

[32]الطالبي، محمد. ترجمة: الصيادي، المنجي. 1995. الدولة الأغلبية: التاريخ السياسي، ط2، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

[33]فازلييف، أ. ترجمة: شعيرة، محمد. د.ت. العرب والروم، دار الفكر العربي – بيروت.

3. الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)

[34]باري ... الإمارة المجهولة في تاريخ الإسلام . تاريخ الاسترجاع : 21-10-2025م. نشر بموقع: https://www.msf-online.com/

[35]المعرفة. البحر الأدرياتي. تاريخ الاسترجاع: 17-9-2025 م. نشر بموقع : https://www.marefa.org/.htm.

[36]موقع إمارة بنيفينتو وسالرنو . تاريخ الاسترجاع 2025/11/17م نشر بموقع: https://www.marefa.org /

[37]ويكيبيديا الموسوعة الحرة. مقاطعة باري. تاريخ الاسترجاع: 18-9-2025 م. نشر بموقع: https://ar.wikipedia.org/wiki :

4. المراجع الأجنبية

[38] Berto, L.A. 2018. Making History in Ninth-Centary Northern and Southern Italy, University Press – Pisa.

[39] Erchempert. 2022. The Little History of the Lombards of Benevento by Erchempert, Routledge- London

[40] Jules, G. 1904. L'Italie meridionale et L'Empire Bizantin depuis l'avenement de Basile ler jusqu'a la prise de Bari par les Normands (867-10710)- Paris.

[41] Riche, P.1993. The Carolingians: A Family who forged Europe, trans. from French by Michael Idomir Allen, University of Pennsylvania Press - Philadelphia.